ثرمداء رَبْعِيَّة لا سَعْدِيَّة !!

أ. أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

قال الزبيدي : ثـرمد اللحم : أهمله الجوهري .. وقـال الصاغاني : إذا أساء عمله، وقيل: لم ينضجه، أو ثرمده إذا لطخه بالرماد.. يقال: أتانا بشواء قد ثرمده بالرماد.

والثرمدة (كذا عند أبي حنيفة، وعنـد ابن دريد الثرمد) : نبات من الحمض تسمو دون الذراع .. قال أبو حنيفـة: وهي أغلظ من القلاّم، وهي أغصان بلا ورق، خضراء شـديـدة الخضرة، إذا تقـادمت سنتين غلظ سـاقهـا، فـاتخذت أمشـاطـاً لجودتها وصلابتها.. تصلب حتى تكاد تعجز الحديد، ويكون طول ساقها إذا تقادمت شبراً.

وثـرمداء بـالفتح والمد مـوضـع خصيب يضرب بـه المثل لخصبـه وكثرة عشبـه فيقال: نعم مأوى المعزى ثرمداء.. كذا في مجمع الأمثال.

وفي معجم البكري: هو مـوضـع في ديار بني نمير أو بني ظالم من الـوشـم بناحية اليمامة.. وقال علقمة:

وما أنت أم ما ذكرها ربعية

يخط لها من ثرمداء قليب

أو ثرمداء ماء في ديار بني سعد في وادي الستارين.

قال أبو منصور: وقد وردته يُستقىٰ منه بالعقال لقرب قعره.

وثرمد كجعفر شعب بأجا أحد جبلي طيئ، لبني ثعلبة من بني سلامان من طيئ.. قال حاتم طيئ:

إلى الشعب من أعلى مِشارٍ فثرمد

فبلدة مبنى سنبس لابنة الغمر

ومما يستدرك عليه: ثرمد بالفتح وضم الميم: موضع في ديار بني أسد، ويروى بالمثناة الفوقية، وقد سبق ذلك(١).

قال أبو عبد الرحمن: المراد ثرمد الشمال؛ لأن مشار من أعلى قمم أجا.

قال أبو عبد الرحمن: يظهر لي أن المادة حكاية صوت لنبع الماء وامتداده، فسمي به كل ذي ماء قريب كثرمداء الستار، والشعب بأجا، وسمي به الحمض لنبعان الماء منه .. قال اللحياني: كل ملح أو حامض من الشجر كانت ورقته حية إذا غمزتها انفقأت بماء، وكان ذَفِرَ المشم، ينقي الثوب إذا غسل به، أو اليد، فهو حمض نحو النجيل، والخذراف، والإخريط، والرمث، والقضة، والقلام، والخرم، والحرض، والدغل، والطرفاء، وما أشبهها(٢).

قال أبو عبد الرحمن: ثم اشتق منه الإساءة، وعدم الإنضاج، والتلطيخ على التشبيه بالحمض طعماً أو منظراً، أو هما معاً.

قال الزبيدي: الحمض ما ملح وأمر من النبات كالرمث، والأثل، والطرفاء، ونحوها كما في الصحاح.

وفي المحكم: الحمض من النبات كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له(٣).

قال أبو عبد الرحمن: القبائل تنتقل من دار إلى دار فتنتقل معها الأسماء وتتكرر.

إلا أن ثرمداء الوشم سميت فيما يترجح لدي ابتداء من أجل نبات الحمض بها، ولم يُستعر الاسم لها من بلد آخر.

والدلائل تشير إلى أن بلاداً وشمية من المروت إلى ضرما والهزمة كانت لبني نمير،

ثم داخلتهم الرباب وتميم، فبقي النميريون في الطرفين.. في المروت، وفي ضرما والهزمة، أو أن النميريين حلوا فيما بعد بتلك الديار.

وعدها لغدة من بلاد امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم بن مر(٤).

والشواهد الشعرية عن تميم والرباب قديمة، والكلام عن بني نمير ورد عن عموم الوشم عند الهمداني نقلاً عن الجرمي أن الوشم للقراوشة من نمير(٥).

والجرمي قديم، والهمداني من أبناء القرن الرابع(٦).

وقال جرير:

عفت قرقرى والوشم حتى تنكرت

أواريها والخيل ميل الدعائم

واقفر وادي ثرمداء وربما

تدانى بذي بهدى حلول الأصارم(٧)

قال أبو عبد الرحمن: الأواري حظيرة الماشية، والأصارم البيوت المتباعدة..

وقال جرير:

انظر خليلي بأعلى ثرمداء ضحى

والعيس جائلة أغراضها خُنُفُ

استقبل الحي بطن السر أم عسفوا

فالقلب فيهم رهين أين ما انصرفوا(٨)

قال أبو عبد الرحمن: الأغراض الأحزمة، ووصف العيس بالخنف؛ لأنها تلعب برؤوسها يمنة ويسرة.

وقال البكري: ثرمداء بفتح أوله وفتح الميم والدال المهملة ممدودة قرية بالوشم، وهي خبرة، وإليها تنتهي أوديته جمعاء، وهي من منازل بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بنجد.

قال علقمة:

وما أنت أم ذِكْرُها ربعية

يخط لها من ثرمداء قليب

يريد أن مشربها هناك.

وقيل: بل أراد أنها لازمة لذلك الموضع حتى يخط به قبرها كما قال الهذلي:

وقد أرسلوا فُرَّاطهم فتأثلوا

قليباً سفاها كالإماء القواعد

يعني قبراً .. وقال العجاج:

لقد نحاهم جدنا والناحي

لقدر كان وحاه الواحي

بثرمداء جهرة الفضاح(٩)

قال أبو عبد الرحمن: العجاج سعدي، وإنما يريد ثرمداء قومه بالمنطقة الشرقية بالستار.

وقال ياقوت عن ثرمداء: قال الأزهري: ماء لبني سعد في وادي الستارين، وقد وردته يسقى منه بالعقال لقرب قعره.

وقال الخارزنجي: هو بكسر الميم.. قال: وهو بلد.

وقيل: قرية بالوشم من أرض اليمامة.

وقال نصر: ثرمداء موضع في ديار بني نمير أو بني ظالم من الوشم بناحية اليمامة، وهو خير موضع بالوشم، وإليه تنتهي أوديته.

ويروى بكسر الثاء.

وقال أبو القاسم محمود بن عمر: ثرمداء قرية ونخل لبني سحيم، وأنشد:

واقفر وادي ثرمداء وربما

تدانى بذي بهدى حلول الأصارم

قال: وذو بهدى واد به نخل، والموضعان متقاربان.

وقال السكوني: ثرمداء من أرض اليمامة لبني امرئ القيس بن تميم .. قال جرير:

انظر خليلي بأعلى ثرمداء ضحى
والعيش جائلة أغراضها جُنُفُ
إن الزيارة لا ترجى ودونهم
جهم المحيا وفي أشباله غضَفُ

وقد نسب حميد بن ثور الهلالي البرود إلى ثرمداء، وكان ابنه يراه يمضي إلى الملوك ويعود مكسواً، فأخذ بعيراً لأبيه فقصد مروان، فرده ولم يعطه شيئاً فقال:

ردَّك مروان لا تفسخ إمارته
ففيك راع لها ما عشت سرسورُ
ما بال بردك لم تمسس حواشيه
من ثرمداء ولا صنعاء تحبير
ولو درى أن ما جاهرتني ظهراً
ما عدت ما لألأت أذنابها النور

قال الراجز:

بذات غسل ما بذات غسل
وثرمداء شعب من عقل(١٠)

قال أبو عبد الرحمن: إن صح كسر الميم فالمراد ثرمداء بني سعد في الشرقية. وتعيَّن من نص ياقوت أن نسبتها إلى بني نمير منقولة عن كتاب نصر.

ولا بُعْدَ في نسبة الزمخشري ثرمداء إلى بني سحيم؛ لأن البلاد ربعية (أي ربيعة الفرس) قبل أن تكون ربعية تميمية.

والكلام عن ذي بهدى يأتي إن شاء الله.

والربعيون يجاورون بني امرئ القيس، ولا يُعلم أن ثرمداء مرئية.

وعن شهرة ثرمداء بالنسيج قال الدكتور عبد الله محمد السيف عن العصر الأموي: «ومن الصناعات الأخرى التي وجدت في نجد والحجاز في هذا العصر صناعة المنسوجات في منطقة الوشم بنجد كانت تنسج البرود، وكانت ذات شهرة كبيرة حتى أنها كانت تُصدَّر إلى البلدان الأخرى.

واشتهرت ثرمداء وهي من قرى الوشم بهذه الصناعة، وقد نسب الشاعر حميد بن ثور الهلالي نسيج البرود إلى ثرمداء، فكان ابنه يراه يذهب إلى الأمراء ويعود مكسواً، فأخذ بعيراً لأبيه وقصد مروان بن الحكم، لكنه لم يعطه شيئاً، وعندما عاد قال أبوه:

ما بال برديك لم تمسس حواشيه
من ثرمداء ولا صنعاء تحبير

ويعلق مقبل الذكير على نسبة البرود إلى ثرمداء فيقول: أما ما وصف الهلالي من نسبة البرود إلى ثرمداء فهذا مما لا شك فيه، فقد كان يعمل فيها ذلك إلى مدة ليست بعيدة، وقد كان الوشم مشهوراً بالنسيج من الخامات والصوف إلى مدة لا تبعد أكثر من مائتي سنة، وقد أخذ يضعف هذا العمل حتى تلاشى قبل مائة سنة حتى فقد تماماً[11].

ويُستشف من رواية ابن سعد أن الفقيه عبد الله بن أسود[12] الذي عاش في اليمامة في العصر الأموي كان يزاول نسج البرود»[13].

قال أبو عبد الرحمن: أما النسيج المشهور فلا شهرة للوشم ولا لشقراء ولا لثرمداء في العصور الأخير، وأما الحياكة والعباءات (المزوية) البدائية فكانت شهرة الوشم إلى وقت قريب.

قال أبو عبد الرحمن: إنما ديار الربعيين ثرمداء، ثم أكثر بطين ضرماء، والبطين محسوب من الوشوم قديماً.

وقد حدد الهمداني البلاد الربعية في البطين (قرقرى) إلى أقصى الوشم بعرفنا الجغرافي الحالي فقال: «قرقرى، والهزمة، والنهى، ومياه السباعة، والمحضة وقراها، والبرتين.. والديار كلها ربعية[١٤].

وهي بين بطن قف العارض وبين رملة الوركة إلى أقصى الوشوم.

فهي من عويند بني خديج، فالرغام، فرملة الحصادة، فمنفوح، فالبردان، فثرمداء، فذات غسل، فالشقراء، وأشيقر.

فراجعاً إلى قصد الفروع، فإلى مرأة، فإلى بطن الأزرقة، فإلى توضح، فمارد غريبهن.

وهو قفيف منقطع ممدود مد الحبل»[١٥].

قال أبو عبد الرحمن: ما بعد ثرمداء شمالاً فليس لتميم، بل للرباب.

ويفصل ثرمداء عن الربعيين بلاد لبني امرئ القيس وبني مبذول من ضبة.

والرغام تميمية ولكنها ليست ربعية بل مرئية.

وعن القف قال الزبيدي: قال شمر: القف: ما ارتفع من الأرض وغلظ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً.

وفي الصحاح: ما ارتفع من متن الأرض، والجمع قفاف.

زاد غيره: وأقفاف.. قال امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

وقيل: القف كالغبيط من الأرض.

وقيل: هو ما بين النشزين، وهو مكرمة.

وقيل: القف أغلظ من الجرم والحزن[١٦].

قال أبو عبد الرحمن: والربعيون قوم علقمة الفحل يلقبون بربيعة الجوع، وذكر ابن الكلبي أنهم مع بني نهشل[١٧].

ويعرفون أيضاً بربيعة الكبرى تمييزاً لهم عن ربائع تميم الأخرى.

ونص الشيخ ابن بليهد على أن ثرمداء لبني سعد في الجاهلية(١٨)، وقال في موضع آخر: ثرمداء مدينة عظيمة، وإليها تنتهي سيول الوشم التي جنوبيها بلد مرات وشماليها أشيقر.

ولكن سيل أشيقر يتجه إلى روضة لهم يقال لها الرمحية كما أن سيول ثرمداء وباقي سيول الوشم التي شماليها شقراء وجنوبيها مرات.

وثرمداء مدينة بها نخيل وليست كما ذكرها السكوني أنها لبني امرؤ القيس، بل لبني سعد؛ لأن بني منقر بطن من بطون بني سعد الذين يرأسهم قيس بن عاصم المنقري، وظني أن العناقر من بني منقر لأن المناقير الموجودين بهذا الاسم لم يتغير اسمهم في هذا العهد المناقير، ومنزلهم في حوطة سدير.

وقد سألت حمد المنقوري: مِمَّن أنتم ؟.

فقال: نحن العناقر أهل ثرمداء.

فقلت له: ألستم من بني منقر ؟.

قال: نحن من عناقر من بني منقر.

فقلت له: إن الإبدال كثير في لغة بني تميم، وقد أبدلوا اسمهم عيناً عوضاً عن الميم(١٩).

قال أبو عبد الرحمن: يستقيم الكلام بدون «التي» بين «سيول الوشم» و «جنوبيها» لو كان الوصف لثرمداء وحينئذ يُنتقد التحديد بأن أشيقراً عنها شمال غير محاذي، وشقراء أقرب للتحديد. وهي محاذية.

ولكن الوصف للسيول، والدليل على ذلك قوله: «وباقي سيول الوشم التي شماليها شقراء».. فالوصف للسيول.

وثرمداء ليست لبني سعد، وإنما سكنها العناقر بآخرة.

وتابعه الأستاذ ابن خميس، وقال: تقع ثرمداء جنوب منطقة الوشم، وموقعها - كما وصف علماء المنازل والديار - من أحسن المواقع هناك باعتبار أن البطن الذي

تقع فيه خصب طيب التربة كثير الإنتاج، وتتجمع سيول صفراء الوشم الجنوبية حول بلدة ثرمداء... يقبل بعضها مشملاً والآخر مجنباً حتى تلتقي هناك.

وهي واقعة بين بلدة أثيفية التي تقع غربيها شماليها وبين بلدة مرآة التي تقع جنوبيها، ويحفها طريق الحجاز من الناحية الغربية بينها وبين الصفراء.

وهذه البلدة منذ القدم تميمية ولبني سعد منهم، ولا تزال كذلك فإن أمراءها العناقر من بني سعد من تميم.

ومن ثرمداء العالم الجليل الفقيه عبد الله بن عبد العزيز العنقري، ومنها الأمير الشجاع الشاعر بداح العنقري صاحب القصيدة التي منها:

وراك تزهد يا أريش العين فينا

تقول خيال الحضر زين تصفيح

ترى الظفر مهوب للظاعنينا

قسم وهو بين الوجيه المفاليح

البدو واللي بالقرى نازلينا

كل عطاه الله من هبة الريح

وهي قصيدة طويلة فيها فخر وغزل ووصف من الجودة بمكان.

ويذكر الأستاذ حمد الجاسر في تعليقه على بحث نشر بمجلة العرب للباحث عبد الله بن ماجد: أن الربان الشهير ابن ماجد كان من أسرة توجد الآن بثرمداء، وأنه كان يُجرىٰ لهم مخصص من الدولة التركية من أجل ذلك، وأنهم يقولون: إن الربان الشهير المذكور جَدٌّ لهم. اهـ.

ويقول بعض الناس: إنه من آل ماجد أهل ثادق، ولكن المرجح أنه من ثرمداء.

وأيا ما كان فالأسرتان تميميتان، غير أن الأولى سعدية وهذه عمرية، ولا مشاحة في ذلك(٣٠).

وقال الشيخ المعمر صالح بن مدلج بن عبد الله اليوسف في لقاء معه، وقد بلغ من العمر خمس سنوات ومئة سنة:

ومن أماكن ثرمداء المشهورة القاع، وهو روضة محمية تصلها السيول من الجهة الجنوبية، وتعرّض لعدة غرقات مما سبب تلف مزروعات بعض الأهالي.

وأذكر سنة من السنوات أنه غطى كدوس القمح، وتم إنقاذ ما يمكن إنقاذه على الأبواب لحملها منذ حوالي ٥٠ سنة.

والصحن هو البلد الجديد، وكان قديماً حزماً يستخدمه الأهالي للدياسة نظراً لصلابة أرضه، وهو أرض لجميع الأهالي، وقد أقام فيه الملك عبد العزيز رحمه الله مدة يومين حيث كانت ثرمداء في حماية الملك عبد العزيز، ومع قدومه هلت الغيوم واخضرت الأرض.

وتعرضت ثرمداء لسيل لا مثيل له، ومن بعده بفترة وجيزة غزوت معه في غزوة حوام، وأمضيت مع الملك عبد العزيز خمسة أشهر، وعند رجوعي بدأ الأهالي في غيابي في الدياسة.

أما حدوث ثرمداء شمالاً فإلى ما بعد قصر يقال له قصر الحمض، وجنوباً حتى بداية طريف الحبل، وشرقاً رمال كثيفة حتى بلدة القصب، وغرباً منطقة جبلية يقع فيها مغيران.

وفي القديم كان هناك سوق الحويطة وفيه البيع والشراء على نطاق ضيق.

وبعد حدوث السيل الجارف وسقوط بيوتها تم الانتقال من البلد القديم إلى المكان الحالي.

في القديم يوجد قبيلتان تشكلان الغالبية العظمى من سكان ثرمداء هما اليوسف والعناقر.. وكذلك الفاضل والعباسي وإن انتقلوا حاليًا إلى الخرمة وسكنوا فيها.. وحاليًا تشكل الأغلبية من قبيلة اليوسف معظم سكانها(٢١)».

وقال الشيخ صالح: «سبب تسمية ثرمداء هو وجود موقع ثرمداء في مكان يكثر

فيه شجر الحمض، والحمض في اللغة يسمى الثرمـد، ولذا اشتقت اسمها منه، وكان يطلق عليها قبل الإسلام اسم بهدى نظراً لكثرة نخيلها الجنوبية».

قال أبو عبد الرحمن: لا علاقة للفظ بهدى باسم النخيـل، وإنما هو من البواهد وهي الدواهي كما نقله الصاغاني.

وقال الشيخ صـالح عن سنة الفضيـة: «وهي سنة قدوم قـوم إلى ثرمداء قـاموا ببناء قصر يسمى قصر العيدان، ومازالت أطلالـه حتى الآن موجودة، وأخذوا في هدم بعض البيـوت، وحرق النخل، وتم بنـاء القصر بمسـاعدة حـرفيـة من أبناء أثيثيـة وثرمداء وشقراء وانتهى في خلال ٣٠ يوماً.

وكـان عبد الله بن جلـوي يسأل بعض أهالي ثـرمداء الخارجين معـه: هل يوجـد رجال شجعـان في ثرمـداء؟ .. وكان يسأل الحميـدي الدهـلاوي رحمة الله عنها، وفي فجر إحدى الليالي مع الأذان الأول ثم توحيد ثرمداء من إحدى النخيل المجاورة للبلد.

وكان مشاري العنقري رجلاً شجاعاً كـريماً تولى إمارة ثرمداء لسنين طويلة قبل معـرفتي، وكنت صغيراً، وكان قـادمـاً من الأحساء، وكـان أمير ثـرمداء محمـد بن عبدالرحمن العنقري[٢٢].

قال أبو عبـد الرحمن: لم تكن بهدى علماً على ثرمداء، وإنما بهدى موضع قرب ثرمداء، وقرية بعيدة عنها في حضن طويق من بلدان الوشم.

وتحديد الشيخ اليوسف لثرمدا فيه فَجٌّ وتجاوز، والله المستعان.

الهوامش

(١) تاج العروس ٤/٢٧٣.

(٢) المصدر السابق ١٠/٣٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) بلاد العرب ص ٢٧٣.

(٥) صفة جزيرة العرب ص٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٦) معجم ما استعجم ١/٢٤٠.

(٧) ديوان جرير ص ٤٢٤.

(٨) المصدر السابق ص٢٨٩.

(٩) معجم ما استعجم ١/٢٤٠.

(١٠) معجم البلدان ٢/٨٩.

(١١) تاريخ نجد لمقبل الذكير ورقة ١٧٠/ب [السيف].

(١٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٤٠٤ [السيف].

(١٣) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(١٤٣) معجم ما استعجم ٤/١٣٧٩.

(١٥) صفة جزيرة العرب ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(١٦) تاج العروس ١٢/٤٤٠.

(١٧) جمهرة النسب ١/٢٧٢.

(١٨) صحيح الأخبار ٢/١٨٤.

(١٩) صحيح الأخبار ٤/١٩٠.

(٢٠) معجم اليمامة ١/٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٢١) جريدة الجزيرة عدد ٦٠٤٩ في ١٦/٩/١٤١٥هـ ص٦.

(٢٢) المصدر السابق.